الخطاب الشعري

الخطاب الشعري

كانت البلاغة القديمة تعتمد على القيم الجمالية أو ما يطلق عليه الشكل التعبيري وتتخذ لذلك قوائم ثابتة من المبالغة والإطناب والتتابع ، والتكرار ، والحذف والإيجاز والتلميح ، ولما كانت القيم الجمالية أو التعبيرية تختلف من شاعر لآخر ، ومن عمل أدبي لآخر فقد قوبلت البلاغة القديمة بكثير من النقد لاعتمادها على القوائم الجمالية الثابتة التي كان الشاعر يتحرك في إطارها .

ولنا هنا بصدد سرد ما وجه إلى البلاغة العربية القديمة من نقد ، وما برز على الساحة من نظريات بديلة ، وطرائق جديدة في البحث ، إنما الذي يعنينا هو الخطاب الشعري : محتواه ، طبيعته ، طرائقه ، ما يؤثر فيه .

والعمل الأدبي – الشعر أو النثر – تكونه عدة عناصر هي :

١- المُرسِلُ : صاحب العمل الأدبي أو المتكلم ، وعادة يكون ذا صفة انفعالية نتيجة تأثره بمؤثر خارجي ، كما يحمل صفة تعبيرية لغوية تبرز من خلال أسلوبه وما يحدثه من تأليف بين عناصر اللغة بقصد التأثير في المخاطب أو المستقبِل .

٢- المُرسَلُ إليه : وهو الذي يتلقى الرسالة ، أو المخاطَب ، وهو ما يركز عليه صاحب العمل الأدبي – المُرسِل – بقصد التأثير فيه ، ونقل الشعور إليه ، فالمخاطَب إذن يحمل وظيفة تأثيرية .

٣- محتوى الرسالة : أو سياق الرسالة أو ما يسمى الشفرة اللغوية ، وتتركز حول المتحدَّث عنه أو الموضوع وهو ما يعبر عنه بالضمير " هو " سواء أكان شيئًا ما أو شخصا ، أو كائنا ما .

٤- الوسيلة : هي الوسيط الذي عن طريقه تنقل الرسالة ، وتعنى بها الوظيفة اللغوية التي تهدف إلى التأكد من سلامة وسيلة الاتصال .

ويمكن أن نتصور عناصر العمل الأدبي من خلال الشكل التالي :

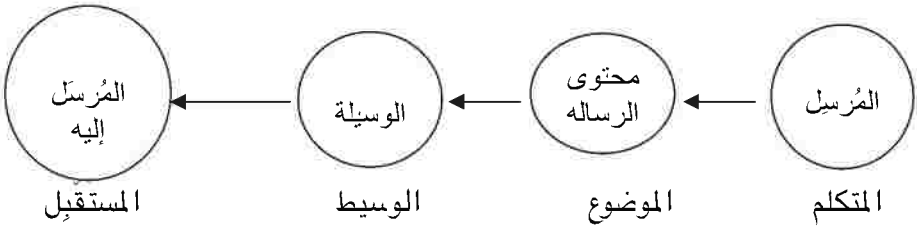

والخطاب الأدبي كما هو معروف بناء لغة من لغة بما تحمل من معان ودلالات ، وهذا يقودنا إلى الأساليب التعبيرية التي تشكلها الأطر البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية وما يتبع ذلك من تحوير لفظي ، وخروج عن مألوف اللغة العادية واختلاف المسافات بين الدال والمدلول من الكلمات ، وما يحيط بالأسلوب وينظمه من نحو وعروض وإيقاع وضبط.

وقد كان للخطاب الشعري – قديما – صفة المباشرة والوضوح في الصياغة من أسلوب أو تصوير ، كما لم تكن للشعر صلة بغيره من العلوم ، لأن الحياة لم تكن قد تعقدت بعد ، ولم يكن هناك اتصال وثيق بين الآداب الغربية والأدب العربي كالذي نشهده اليوم على الساحة الأدبية ، وقديما أشار الجاحظ إلى ذلك حين عرض لقضية اللفظ والمعنى ، وما أشار إليه في " نظرية النظم " حيث لا قيمة للكلمة – في رأيه– مفردة وإنما تكتسب قيمتها من خلال ما يجاورها من كلمات داخل السياق .

لكن الأمر اختلف تمامًا في العصر الحديث مع اتصال الدراسات ببعضها ، وتطور الأدب ومناهجه ونظرياته نتيجة الاتصال المباشر بالآداب الغربية ، الأمر الذي حدا بجماعة الديوان (العقاد والمازني وشكري) إلى مهاجمة الكلاسيكيين

واتهامهم بالعناية بالشكل دون المضمون وجعل العقاد يشبه شعرهم بطلاء الأظافر الذي لا يتجاوز الشكل ثم تطورت النظرة في الخطاب الشعري أكثر، وصار لزامًا على الناقد أن يتعامل مع النص وسياقه تعاملاً شاملاً يبدأ من الحرف والكلمة وما تحمله من دلالات، ومدى تعلق النص بغيره من الدراسات النفسية واللسانية والاجتماعية، حتى صار الخطاب الأدبي إبداعًا وبناء في داخل النص يعين على اكتشاف أبعاد اللغة واستخراج ثرواتها وما تحمل من دلالات، وما تبع ذلك من مصطلحات كالتناص الذي عرفه أحد الباحثين بأنه: " فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة " و أن النص محول لتلك النصوص بتمطيطها أو تكثيفها بقصد مناقضة خصائصها ودلائلها أو بهدف تعضيدها على الإجمال، فإن التناص هو تعالق نصوص مختلفة مع نص حدث بكيفيات متنوعة" [1]

ومن هذه الكيفيات:

١. المعارضة: كأن يحاكي شاعر عملاً فنيًا لشاعر آخر كما فعل شوقي في معارضته للبوصيري، في بردته، وابن زيدون في نونيته.

٢. المعارضة الساخرة: والتي يعمد فيها الشاعر إلى قلب الوظيفة الأسلوبية للعمل الأدبي من حالة الجد إلى حالة الهزل.

٣. السرقة: بنقل العمل الأدبي كاملاً أو محاكاته، مع الاحتيال في إخفاء المسروق.

وليس المجال هنا سردًا لما جد من مصطلحات في العصر الحديث، إنما ذكر التناص نموذجًا لذلك.

١- راجع تحليل الخطاب الشعري، د/ محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر. بيروت، لبنان.